-6-

رفع الغشاوة

سيدي،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. آمل أن تكون بأحسن حال. تلقيت رسالتك بالبريد الإلكتروني وسررت إلى حد العجز عن التعبير عن سروري بالكلمات. الحمد لله، ترجمة كتابك تسير على قدم وساق وسوف تنشر بعد أقل من ثلاثة أشهر كما وعدت، إن شاء الله.

أين أنت في هذه الأيام وكيف حال رحلتك؟ تعلمت الكثير خلال صحبتك القصيرة. آمل (أن تتبع) إرشاداتك في المستقبل. جزاكم الله وبوركتم.

مع أطيب التمنيات

إعجاز ارشاد قاسمي

الأمين العام لمؤسسة السلام الإسلامية.

نيو دلهي.

مفتي على الإنترنت، دار العلومديوباند سابقا،

من يقدر على منع نفسه من العجب من قدرة الروح البشرية على التوسع والتغير؟ حين التقيت بإعجاز أول مرة، بدا متشبثا تماما برأيه، حيث تكون عالمه من تصنيفات بسيطة واضحة المعالم تميز الأصدقاء من الأعداء والدين الصالح من الدين الطالح. بدا إعجاز، مؤلف كتاب "الجهاد والإرهاب"، مهوسا بـ"البربرية الأمريكية" و"الهمجية الإسرائيلية". ولم يكن ثمة ظلال رمادية في نظرته إلى العالم. ومع أنه متدين بأسلوب رسمي ومتشدد، إلا أنه استطاع تطوير سعة صدر روحية تزامنت مع الرؤية القرآنية للإنسانية المشتركة. والآن ها هي رسالته الإلكترونية أمامي وقد وصلت بعد بضعة أيام من عودة الفريق من الرحلة الميدانية في منتصف شهر نيسان/ أبريل، معبرة عن رؤية جديدة، أو "إرشاداتك" حسب تعبيره.

openkandil.com

بعد زيارتنا إلى ديوباند، رافقنا إعجاز طوال الأسبوع التالي حين التقينا المسلمين في الاجتماعات الكبيرة والصغيرة في دلهي. ورتب لنا بعض اللقاءات بنفسه، مثل الزيارة إلى مقر الجماعة الإسلامية، الحزب الإسلامي المتشدد في جنوب آسيا. وأصغى طوال الأسبوع بعناية لخطبي وأحاديثي عن أصدقائي الأمريكيينالمسيحيين واليهودالتي أكدت أن الأمريكيين ليسوا متشابهين كلهم.

في كل منتدى، كان يسمع توكيدي على الحاجة إلى الحوار والفهم بوصفهما واجبا فرضه القرآن، خصوصا في ضوء القوى العولمية التي تصدم الأمة هذه الأيام. حينذاك، أظهر إعجاز اعتزازا (إقليميا) متناميا وهو يقدمني قبل إلقاء محاضراتي. في البداية، قبل أسبوع في ديوباند، قدمني بوصفي "باحثا عظيما" قادما من بلد بعيد. الآن، مع بعض التحدي في صوته وأكثر من مجرد التلميح المميز للمغالاة السائدة في جنوب آسيا، أصبح يدعوني أفضل نموذج للدين الإسلامي – وفي الحقيقة، لجميع الأديان.

أعتقد أننا كنا أول أمريكيين يقابلهم إعجاز ويقضي معهم وقتا طويلا. أجرى أحاديث مطولة، مع هيلي وفرانكي ثم مع هاديا، عن قضايا جدية كانت تثيره وتهيج أعصابه فيما يتعلق بالشؤون الدولية. ومع أنه بدا متحفظا في البداية ومحجما عن الحديث مباشرة مع هيلي وهاديا، إلا أنه أصبح أكثر انفتاحا بعد أن أمضى بضعة أيام معنا في الميدان، وتمكن أخيرا من وضع وجه إنساني على ما كان يدعوه سابقا بـ"البربرية الأمريكية". فهؤلاء الأمريكيون يصغون فعلا إلى آرائه وعلى استعداد لمناقشتها بأسلوب جدي، وذلك على العكس من المعلقين المنمطين في وسائل الإعلام الذين يصنفون أمثاله في خانة "المتطرفين الإسلاميين" دون تعرف الروابط الإنسانية المشتركة بين البشر.

قرب انتهاء زيارتنا إلى الهند، قال إعجاز إنه يريد ترجمة كتابي "الإسلام تحت الحصار" إلى اللغة الأوردية. الكتاب يستكشف فكرة السمات الإنسانية المشتركة، خصوصا بعد الحادي عشر من سبتمبر، ويشرح حقيقة أن المجتمعات كلها تشعر اليوم بأنها تحت الحصار وقد فقدت توازنها. ومن المهم لها تعلم تبادل الثقة فيما بينها، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا عبر الحوار والفهم. وبدأ فيما بعد الترجمة، ويبدو أنه يعبر عن شكر وامتنان يتجاوزان حدود التعبير بالكلمات لأنه وجد أخيرا شخصا يحاول فعلا "شرح

المفهـوم الإسلامي في العالم المعاصر. بارك الله فيكم، وأدعو الله لكم بالصحة والتوفيق وخدمة الإسلام".

ما مدى وضوح تأثير مبدأ الحوار والفهم؟ عبر توزيع ترجمة "الإسلام تحت الحصار" علـى شبكة ديوباند الواسعة من المدارس والمساجد، يستطيع إعجاز نشر هذه الأفكار بين آلاف القـراء الشباب، آملا بتجذر رسالتي عن الحوار مع حضارات العالم الأخرى. وبدلا من تفسير الجهاد بوصفه عنفا، يمكن للشباب التفكير به كحركة مسالمة تستهدف إيجاد فهم أفضل؛ ولربما يفكرون الآن بمكان الإسلام في القرن الحادي والعشرين بأسلوب أكثر توازنـا وتراحمـا، ويستعدون للتواصل ومـد اليدين إلى الحضارات الأخـرى، أو يحاولون فهمها على أقل تقدير.

إذا استطاع إعجاز تغيير موقفه المتشدد، فبمقدور غيره اتخاذ مواقف مشابهة، يشمل ذلـك الأمريكيين وحتـى الإسرائيليين. وعلى شاكلة إعجاز، قد يتخلـى أفراد آخرون عن جدلية "نحن" مقابـل "هم" لتحل محلها أخرى تضم البشر جميعا. وبرأيي، كان حديث إعجاز بالغ الأهمية عظيم الشأن بل يشبه ناقلة نفط تغير مسارها وسط المحيط.

لم أسمـع خبرا عن إعجاز طوال عدة أشهر وبدأت أتساءل عما حدث لخطط ترجمة الكتـاب إلى الأورديـة. ثم كتب إلي في منتصف كانـون الأول/ ديسمبر ليخبرني أين كان وكيف يسير المشروع:

اعتـذر عن انقطاع اتصـالي بك طوال هذه المدة، في الحقيقـة غبت عن الهند ثلاثة أشهر، حيث ذهبت في رحلة إلى جنوب إفريقيا والدوحة. ورجعت إلى الهند قبل أسبوعين. الحمـد لله، انتهت ترجمـة الكتاب في آب/ أغسطس لكن لسـوء الحظ لم تنشر الترجمة حتـى الآن لأننـي لم أكـن في الهند. بعـد عيد الأضحـى إن شاء الله سـوف ينشر كتابك بواسطة سونيا غاندي (زوجة رئيس الوزراء الراحل راجيف غاندي)".

لاحظـت أن إعجاز قاسمي كان يظهر لقبه: أمـين عام مؤسسة السلام الإسلامية في نيودلهي، ويضيف إشارة إلى منصبه القديم: الناطق باسم دار العلوم في ديوباند سابقا. ومن الواضح أنه منخرط في مهمته الجديدة لبناء الجسور وتعزيز السلام.

وعي إعجاز الجديد يقدم أملا واعدا ومشرقا في مشهد كئيب لولاه. لقد فعل ما أوصى به بوذا تحدى السموم في ذاته. وبعد أن كبح جماح غضبه على جهل الأمريكيين، بدأ رحلة عظيمة الأهمية لا للأمة فحسب بل للعالم عموما، مع أنه ربما لا يعي ذلك تماما.

"وفي داخلي، وهذا هو المهم"

التقدم الروحي الـذي حققه إعجاز لم يفاجئني تماما؛ فالحياة إنما هي رحلة للبشر كلهم، وهم قادرون على التغير عبر مراحلها المختلفة. تزودهم الأديان والحكماء بالدليل المرشـد أو بمعـالم هادية على طريقها. مسار حياتي حمـل علامات مثل هذا التغيير دون أن أدركه.

حين كنت شابا، أعجبت باورانغزيب لأنه بدا مجسدا للحاكم المسلم المثالي. لقد اجتذب ولائـي في مرحلة الشباب وحماسي لديني، ورأيت فيه بطلا منافحا عن الدين. كان لا يقبل التنـازل والتسويـات في المسائل التي تعرض المسلمين للتهديد. وبعـد أن ترعرعت في بيئة تسودهـا أعمال عنف ديني واسعة النطـاق، وظلت ذكرياتها تطاردني مدى الحياة، شعرت أن كل مسلم لا بد أن يتأثر باورانغزيب، بطل الإسلام والتجسيد الحي لنموذج ديوباند.

في مرحلـة لاحقة من حياتي، اكتشفـت بطلا مسلما آخر هو محمد علي جناح. جميع القضايا التي ناقشتها مع زملائي في الجامعة تصدى لها محمد علي جناح حين قاد حركة باكستـان. وخلافـا لاورانغزيب، كان جناح مستعدا للتفاعل مـع/ وحتى امتصاص وتمثل الأفكار الأجنبيـة المتعلقة بالديمقراطية وحقوق التصويت للمرأة والأقليات. لكنه لم يكن يسـاوم أو يقبل التسويات فيمـا يخص حقوق وأمن مجتمعه وقومه أيضـا. أثارتني رؤيته علـى مستوى واحد من المكانة مـع المهاتما غاندي وجواهر لال نهـرو، الرمزين الهنديين العظيمـين. وكمسلم، شعرت باعتزاز كبير حين نجح في انتزاع دولة باكستان المسلمة من قبضـة البريطانيين القويـة والمؤتمر الوطني الهندي. أما حقيقـة قدرته على تحقيق هذا النجاح ضمن الأطر الدستورية فقد عززت مكانته في نظري.

حين تقـدم بي العمر، تعاظـم اهتمامي بالإسـلام الصوفي والشمـولي الذي تعرفته عـن طريق والـدي، الذي عمل أولا في الحكومة ثـم في الأمم المتحدة، حين كنت طالبا في

لاهـور. كان يطلب منـي مرافقته إلى مقام داتا صاحب، الـولي الشهير في لاهور (تعرف لاهـور أيضا باسم مدينة داتـا صاحب)، فأقبل نزولا على رغبته لا رغبتي الشخصية. لم يلـح قط علـى الذهاب معه ولم يلق علـي محاضرة عن أفكاره عـن الإسلام. ولم يضغط علـي لنشـر الرسالة العالمية القائمـة على "صلح الكل" كما يجسدهـا داتا صاحب إلا في أواخـر أيامه[1]. لكن شيئـا ما في تلك الزيارات لامس جزءا روحيا في كياني لم أكن حتى أعلـم أنني أملكه. فيما بعد، عنـد استكمال دراستي في جامعة كيمبردج، عدت إلى لاهور وانتسبـت إلى أكاديمية الخدمة المدنيـة النخبوية الراقية، تجسيد نمـوذج عليكره. كنت محافظـا علـى اقتناعي بمزايـا وفضائل أسلـوب عليكره في التفكـير، والإعجاب بمحمد علـي جناح واورانغزيب كبطلين مـن أبطال الإسلام، رغم أن الشكوك بدأت تنتابني فيما يتعلق بالثاني. لكن حتى في ذلك الحين، هنالك شيء شدني إلى داتا صاحب، وحين زرت مقامـه في القسم القديم مـن المدينة، كتبت قصيدة شعرية بعنـوان "متجولا في الشوارع بصحبـة داتـا"، لوصـف التجربة، دون حتـى إدراك كيف عبرت عن نفسـي الجوانية في حياتي الآتية:

كانوا كلهم هنا:

الحب يبقى حبا

مهما بدا فجا في العرض

والإيمان يستحيل حبا

مهما بدا أخرق في التعبير

والحب يبدع الإيمان

من أي ناحية أتى

عدت في تلك الأمسية

محوما في الهواء على قرون تقذفني

إحساس حاد بالخير والصلاح

obeikandl.com

والصداقة

من الداتا

ينساب في شوارع لاهور

وفي داخلي

وهذا هو المهم[2]

أكبر أحمد، حين كان موظفا شابا في الخدمة المدنية، يجلس مع والدته في أواخر الستينيات. كانت الخدمة المدنية في باكستان تضم النخبة وتقوم على نموذج الإسلام العصري (نموذج عليكره)، لكن أكبر أحمد تعرض أيضا لتأثيرات تقليدية وروحانية خلال هذه المرحلة.

المنتسبون الشباب إلى أكاديمية الخدمة المدنية في لاهور كانوا يرون أنفسهم التجسيد الحي للإسلام العصرينتاج حقيقي لنموذج عليكرهوينزعون إلى الهزء بأساليب وطرق أجمر وديوباند. فبرأيهم، يعد الروحانيون مغالين في الاهتمام بالآخرة، وحالمين، ومشوشي الذهن، في حين بدا المتشددون متزمتين ومتخلفين يفتقدون الأهمية والصلة بالواقع: إما "متصوفة" (نموذج أجمر) أو "ملالي ملاعين" (نموذج ديوباند). فعلى

الرغـم من كل شيء، نجح نمـوذج عليكره في قيادة الأمة إلى الاستقلال عن البريطانيين وسوف يحمي هذا الاستقلال في المستقبل. وهكذا لم يفهم أترابي، الذين اشتبهوا بذهابي إلى مقـام داتـا، دوافعي وبواعثـي الحقيقية. ودار جدل تحزيري عـن سبب اختفائي بين الحـين والآخر. إذ وجـدوا أن نموذجي أجمر وعليكره ضـدان لا يجتمعان. وكنت مع هذا وذاك في آن.

حـين أنظر إلى الماضـي بعد تجربة أربعة عقـود أشعر بالخجل والمتعـة معا من ذلك الشاب المتهـور المغرور المتعجرف المتفجر طاقة وأفكارا واعتـدادا بالنفس. كان جزء من ذاتـي يقول: "لقد بلغت القمة. أنا الأفضل والأوسم والأعظم". في حين رفض باقي كياني هـذا الجزء، وسهل على الكل احتواؤه. كانت زياراتي إلى مقام داتا تساعد في كبح جماح الثمالـة والنشـوة بالأكاديمية. وحين كنت أدخـل المقام وأبدأ خلع حذائـي وتغطية رأسي يتبخر ما أحدثته الأكاديمية في نفسي من تعجرف وتكبر واعتداد بالنفس.

عندمـا كنـت أرافق والـدي إلى مقام الـولي في أجمر، الذي كان علـى علاقة روحية بالـولي في لاهور، اكتشفـت الجمال الأبـدي للرسالة الروحية الصوفيـة. حتى في خضم ضجيـج البشـر الصخّاب، تنزل علي شعـور بالسكينة ليمحو أي أثـر للغضب والغطرسة والمطامـح، ويملأ نفسي بإحساسـ روح القداسة، ليجعلني أشعـر باتحادي مع جميع من هـم حـولي، وأنهم أيضا يختبرون الصلة عينها مع المقدسـ السماوي عبر قبولهم الزوار الآخريـن، أغنيـاء أو فقراء، مسلمين أو غير مسلمين. ومع أننـا جميعا وصلنا كغرباء، إلا أننا أصبحنا أخوة وأخـوات في النوايا الصافية، لنميز وندرك روابط الإنسانية المشتركة في مكان العبادة هذا. ليس ثمة ماض ولا مستقبل، بل حاضر مسالم مطمئن. استطعت أن أرى بوضـوح، كأنما رفعت غشاوة عن عيني، مدى قرب البشر بعضهم من بعض وبشاعة الحواجز التي أقاموها لتحول دونرؤيتهم الجمال في أرواح العالم المتنوعة.

في رحلتنا داخل الإسلام، رأى أعضاء فريقي الشباب رأي العين التأثير الذي مارسته أجمر علي، كما وصفته هاديا:

في أجمـر، رأيت فجأة أستاذنا العزيز، الدكتـور أكبر، يتحول من ديبلوماسي محنك وباحث محلل إلى روحاني مطمئن ومسالم، بعد أن استولت عليه الروحانية المحيطة به من

كل حـدب وصوب. اتبع بهدوء دليلنا إلى مرقد الولي الصوفي الذي عاش في القرن الثاني عشـر، مـرددا الدعاء متمتما الصلـوات بصوت هامس. وحين دخلنـا مرقد معين الدين تشستـي، تغير وجـه أكبر كليا. لم أره بمثل هـذه الحالة الوجدانية مـن قبل. لربما تذكر والـده، الذي اعتـاد مرافقته في الزيـارات السابقة إلى المقام في أجمـر. ذكرني الدكتور بتـلاوة الفاتحة على روح الولي وهمس سرا: "في كل مرة صليت هنا، غمرتني البركات". ثـم رفع راحتيه وصلـى متضرعا خاشعا. بدا مطوقا بهالة من الطمأنينة والهدوء والصلة بخالقه. جلس صامتا بعض الوقت، وقد أغمض عينيه وحنى رأسه، كأنه غائب عن الوعي لا يرى أي شيء حوله.

عندمـا جلسنا في الباحة المفتوحة بين المسجـد والمقام، بدا الدكتور وكأنه يعود ببطء مـن غشيته ويرجع من عالم مختلف. أمكننا رؤية مـدى تأثره بالزيارة. جلس القرفصاء وأصغـى لكلمـات المنشدين يرتلون المدائـح الإلهية. قال لي "افتحـي قلبك. واعثري على مكان فيه يسع الجميع".

لا يمكن لنفوسنا وأرواحنا التواصل إلا إذا تجشمنا عناء - وأحيانا ركبنا مخاطرة - زيارة بعضنا بعضا. ولسوء الحظ، لا يغامر سوى قلة من الأمريكيين في العالم الإسلامي بالخـروج من وراء الجدران العالية المحصنة التي تطوق مبـاني إقامتهم لمقابلة الناس العاديـين في الشارع (صاحب متجـر أو سائق سيارة أجرة مثـلا). لنتخيل تأثير زيارة يقـوم بها مثلا ديبلوماسي مـن السفارة الأمريكية في دمشـق إلى شيخ معروف لإجراء حوار بعيد عن الرسميات. لنتخيل عدد الحواجز الثقافية والنفسية التي يمكن تجاوزها آنذاك.

فريقنـا فعل ذلك بالضبـط. سافرنا إلى دمشـق وقمنا بزيارة الشيـخ حسام الدين فرفـور، رئيس معهد الفتـح، الجامعة الإسلاميـة المعروفة. بدا الشيـخ متجهما بعمامته البيضـاء ولحيتـه المشذبـة وجبته السوداء التـي غطت جسمه الضخم، وهـو ينتظرنا في مكتبـه المعتم مع قرابة عشرة من كبار رؤساء الأقسام والكليات، جلسوا جميعا على أثاث قـديم العهد. تحدثوا بنـوع من الحنين حين تذكـروا زياراتهم إلى الجامعـات الأمريكية والبريطانية، وخلال اللقاء، دخل طلاب الشيخ حاملين أكواب العصير.

مـع أنني بدأت بطـرح بعض الأسئلة عن الإسـلام، إلا أن مجرى الحديث تحول فيما بعـد إلى وصف ممـل وأحيانا هاذر للمشـكلات القائمة مع الولايات المتحـدة. كنا نتلقى المحاضرة ذاتها جوهريا طوال الأيام القليلة الماضية، وأعددت نفسي لأصيل طويل وعقيم. مع استمرار الحديث، شعرت أن الشيخ بيروقراطي كيّف الإسلام مع الخطاب الاشتراكي والنظام الاشتراكي الذي يشتغل ضمنه. الصورة الرسمية للرئيس بشار الأسد في المكتب وإقـرار الشيخ بالخدمات التي قدمها الرئيس لقضية الأمة والإسلام أكدا هذا الانطباع. حـين بدأنا نستعد للمغـادرة، دعانا الشيخ إلى عشاء في منزلـه. وعدته أن أبلغه إذا كنت أستطيـع تلبية الدعوة، تاركا لنفسي فسحة من الوقـت للتفكير بعذر مقبول لأنني لم أكن متيقنا تحمل حضور جلسة أخرى من هذا النوع.

الضيوف الذين تجمعوا قبل مأدبة العشاء التي أقامها العالم الإسلامي المعروف، الشيخ فرفور، في منزله في دمشق. تغيرت طبيعة الأمسية حين بدأ الشيخ ينشد المدائح النبوية.

علـى الرغم مـن قلقي من جلسة مملة أخرى، إلا أننا زرنـا الشيخ في منزله في الليلة التاليـة. يقـع البيـت "العربي" في زقـاق شعبي مكتظ، وبـدا مدخله غامضـا، حيث كان يفضـي إلى فناء ثم بهو وفنـاء آخر، بديع وأنيق، ينفتح على البيـت الرحب والمريح حيث

تنفصل مخادع الرجال عن النساء وفقا للتقاليد المحلية. دخلنا غرفة مكتب الشيخ، التي امتلأت جدرانها بالكتب المجلدة عن الإسلام من النوع الذي نجده في بيت أي مسؤول مثقف وميسور في العالم الإسلامي. حضر بعض الأساتذة الذين التقيناهم في الجامعة، إضافة إلى عدد من الوجوه الجديدة، ومنهم شخصيات دينية بارزة وأتباع الشيخ.

أجلسني الشيخ في صدر غرفة الجلوس وبجانبي هيلي، المرأة الوحيدة الحاضرة. وسرعان ما وصل الضيوف، والعديد منهم يرتدون الجبة السوداء ويعتمرون العمامة البيضاء مما يدل على مكانتهم الدينية الرفيعة. وبعضهم من أبرز علماء الدين في دمشق. وبدلا من التحية المعروفة (السلام عليكم مع المصافحة)، لمس كل منهم صدره – وهذه تحية صوفية تقليدية. الإشارة التلميحية إلى الصوفية أيقظت فضولي.

أبدى الضيوف نحونا مشاعر ودية ودافئة وكريمة، وسيطر على الأمسية إحساس جديد. وبعد الحديث الذي تجاوز السياسة ليركز على العلماء المسلمين الكبار، دعا الشيخ ضيوفه إلى قاعة الطعام. كان العشاء، الذي قدم على مائدة عريضة، مكونا من تشكيلة واسعة من الأطباق العربية الشهية التي تطلبت حتما أياما لتحضيرها، فشعر الضيوف بمزيد من الاسترخاء. ولكي تشعر هيلي بمزيد من الراحة هي أيضا، دعا الشيخ كنته الإسبانية للجلوس معها نظرا للفصل الصارم بين الرجال والنساء عادة. وبدأت الاثنتان تبادل الحديث لأن هيلي تتحدث الإسبانيةعن النساء غير المسلمات من أمثالها اللاتي يعتنقن الإسلام عند الزواج من مسلمين.

بعد الاستمتاع بالطعام اللذيذ والصحبة الدافئة، لم يعد الشيخ يبدو كرب بيت عربي تقليدي بل رجل يعيش في سلام وطمأنينة مع نفسه. بدأ يهمهم وقد أغمض عينيه ويميل بلطف إلى الأمام وإلى الوراء مع إيقاع راحتيه على ركبتيه. همس طلابه إلينا إنه يحب ترديد المدائح النبوية. ثم شجعوه على الإنشاد بصوت عال، فعلا صوته القوي المطمئن وملأ الغرفة بالتعاطف والحب. كانت المدائح تتناول نبل وبهاء وإحسان النبي، وسرعان ما علت وجوه الحاضرين أمارات السكينة والهدوء والدعة.

بدأ نوع من التداخل المعقد بين النماذج الثلاثة (التي حددناها في هذا الكتاب) يتكشف أمامي في الغرفة. فما بدا أنه نموذج عليكره، الذي يدعو إلى الجمع والموالفة مع

المنظومـات غير الإسلامية (الاشتراكيـة في هذه الحالة)، أخذ يتحول إلى نموذج أجمر، بتعبيراته الروحانية عن السلام والأمان والإحسان والتراحم والإنسانوية العالمية الشاملة. التغيـير في الخطاب تناسب مـع لغة الشيخ فرفور الإشارية، بعد أن تحول من بيروقراطي رسمي وعصبي وحتى عدائي قليلا إلى شيخ صوفي رقيق ومبتسم وودود.

بعـد العشاء، رافقنا الشيخ إلى المدخـل الرئيس لبيته، حيث انتظرنا وصول سيارتنا، ريـاح شباط/ فبراير الباردة أرعدت هيلـي قليلا. وبلحظة، وبناء على طلب الشيخ، دخل ابنـه المنزل وخرج حامـلا وشاحا بلون أسمـر مصفر، ناوله إلى الشيـخ الذي رفعه فوق رأسه وأغمض عينيه وتلا دعاء بالعربية. وفيما بعد أبلغنا المترجم أنه دعا الله أن يبارك لنـا ويحفظنا ويرعانا في سفرنـا ويسعدنا في حياتنا. تلفعت هيلي بالوشاح وعلت محياها ابتسامـة، وما زالت تحتفظ به كذكرى للحظة من اللطـف الحقيقي العفوي ورمز للصلة الجامعة بين الثقافات.

في اليـوم السابق على مغادرتـي دمشق، تلقيت عدة رسائل عاجلـة من الشيخ فرفور يطلـب فيهـا مقابلتـي. فسوف يحل ضيفـا على حفل عشـاء يقيمه السفـير الباكستاني، واقترحت عليه الذهاب معا في سيارتي والتحدث في الطريق نظرا لضيق الوقت. لكنه ألح علـى لقاء منفرد بيننا. وحين وصل إلى الفندق قـال إنه يريد تقديم هدايا لنا ويرغب أن تكـون عربونا على الاحترام. أعطاني نسخة بديعة من القرآن لم أر مثلها في حياتي، وهي نسخـة مطبوعة خصيصى للرئيس الأسد. وكتب داخلها كلمات تشجيعية بالعربية. وقدم هديـة إلى كل عضو من فريقي، كتب عليها رسائل تعبر عن السلام والبركات الروحانية. كان التأثر واضحا على هيلي، حيث كتبت تقول:

اختـار لكل منـا كتابا خاصـا به، وخصنـي بكتـاب بالإسبانية. كتـب داخل الغلاف الخارجـي رسالة تعبر عن الأمـل بمستقبل العالم والعمل الذي نقوم به. وقال إن حبنا لله والإنسانية هو الأمل الوحيد وأنه يدعو الله أن استمر في العمل من أجل السلام. لقد أثبت الشيـخ فرفور، وإعجاز، وعدد لا يحصى ممن التقينا بهـم في الرحلة أن السبيل لمحاربة التعصـب والكراهيـة في عالمنـا هو التراحـم والإحسان والحـب لا الإقصـاء والاستبعاد والكره. وهكذا، يجب علينا مقاربة العالم لا من موقع الخوف كما فعلت قبل هذه الرحلة،

بـل من موقع الحـب والصداقة الذي أرى العالم منه الآن. مـن الممكن ذلك، لكنه يتطلب تغييرا جذريا في أسلوب تفكيرنا وطريقة تصرفنا كقوة عالمية. فإذا استطاع ثلاثة طلاب (أمريكيـون) مع أستاذهم إحداث مثل هذا الفـارق، ماذا يمكن لحكومة وأمة برمتها أن تفعل بقوة التراحم والتعاطف والحوار؟

قـد يفكر المسلم بنمـاذج أجمر وديوباند وعليكره بطـرق مختلفة في لحظات متباينة أو حتـى متزامنة مـن الحياة. والانتقال من نمـوذج إلى آخر يعتمد علـى نمو الشخصية والظـروف المحيطة والفرص المتاحة. في حالتي أنا بالـذات، كان الانتقال والحركة جزءا مـن مسيرة حياتـي؛ وفي حالة إعجاز، حـدث تغير مميز في الوجهـة. العوامل الخارجية الطارئـة والمواقـف المجتمعية العامة تؤثـر في تدفق وشعبية هذه النمـاذج داخل الأفراد. وهذا يجعل من المهم جدا معرفة ما هي العوامل المؤثرة في المسلمين في شتى أنحاء العالم وفي اتباعهم النموذج القائم على الحب والتعاطف وقبول الآخر.

استخدام معارف الحكماء في عصر العولمة

مـع انتقـالي من مرحلـة إلى أخرى في الحيـاة وترحلـي في العالم والتطـور الروحي الـذي شهدته، اكتسبت نوعا من الرؤية لأفضـل سبيل يسير عليه أولئك المهتمون بتحقيق السـلام. قابلت على الطريق العديـد ممن لا ينتمون إلى ديني وثقافتـي، لكنني بادلتهم الاحترام والإعجاب. هذه العلاقات قادتني إلى منظور جديد آخر: وجدت أن البطلين في نظـري، اورانغزيب ومحمد علي جناح، يجسدان صيغا من الإسلام ما زالت تمثل حواجز تعيق الفهم. اورانغزيب كان مغاليا في "إسلاميته" الاستبعادية، ومحمد علي جناح فشل، مـع قبولـه بنفـوذ وتأثـير "ويستمنسـ " في سياستـه، في تقديـر قيمة البعـد والطبيعة الروحانيين للثقافات الأخرى.

وخلال جهدي المبذول لتشجيع السلام والحوار بين الثقافات، تبين لي أن نموذج أجمر يفتقر إلى الشكل المحدد وتفسيره يغالي في الشخصنة إلى حد أن إفراطه في الخصوصية يمنعـه من مواجهـة ضغوط النزعـة الاستهلاكية المتفشية في هذا العصـر. افترضت أن سبيـل التقـدم الوحيد يكمن في ترويـج وتشجيع نموذج عليكره. فعلـى الأقل يتمتع بميزة قدرته العملية، ويمكن فهم إطاره المرجعي من المسلمين والغرب على حد سواء. واعتقدت

أن بمقدور نموذج عليكره في نهاية المطاف، كما فعل محمد علي جناح، المساعدة في إيجاد شعور بالوطنية العصرية. وفي حين أن هذا النموذج ربما يروج لغة التجارة والسياسة الدولية، فإن الوطنية - بالتعريف - توجد حواجز معيقة تقصي وتستثني الجيران ومن ثم تمنع الفهم الحقيقي والسلام الدائم بين الثقافات. في مواجهة العولمة، توضح أن نموذج عليكره يمتلك إمكانية إنتاج الحكمة والعدالة، لكنه يفشل في إنتاج التراحم والتعاطف، الطريقة الوحيدة الأكيدة لجمع الحضارات معا في علاقة صداقة. والطلاب الذين التقاهم فريقنا في عليكره ربما كانوا يتحدثون الإنكليزية بطلاقة ويقرؤون توماس فريدمان، لكن قلة منهم تعمقت في الحضارة التي تواجههم، ولم تصل إلى حد قراءة نثر توما الإكويني وشعر القديس فرانسيس، أو حتى مسرحيات شكسبير. ولم تتمكن من التواصل معها لا روحيا ولا ثقافيا. ومثلما هو مطبق هذه الأيام، اختزل نموذج عليكره إلى الخنوع إلى الصفقات التجارية السطحية والمنتجات الاستهلاكية الزائلة. بكلمات أخرى، فشل نموذج عليكره في عقد الصلة الروحية الضرورية بين الثقافات.

إذا كان نموذج عليكره يعاني نقائص وأخطاء وعيوبا، فكذلك حال نموذج ديوباند، حيث تسهل إثارة مشاعر الغضب والحماسة العاطفية بين أتباعه. ولا يمكن أن يعمل بفاعلية في عصر العولمة إلا إذا بدأ بالتغيير. إذ لا يستطيع المسلمون البقاء في جزيرة معزولة وسط بحر من الثقافات والديانات المتنوعة. وباعتبار البشر ينتمون إلى حضارة عالمية، فهم الآن أكثر قربا وأشد اعتمادا على بعضهم بعضا بحيث يستحيل عليهم ترف تجاهل وإقصاء الآخرين. يجب على نموذج ديوباند مقاربة الديانات والمعتقدات الأخرى عبر قبولها والتعاطف معها إذا أراد المسير قدما إلى الأمام. وأظهر واحد من أكثر أبنائه إخلاصا ووفاء (إعجاز قاسمي) أن ذلك أمر ممكن.

ومثلما يقيم نموذج عليكره حدودا سياسية، يضع نموذج ديوباند حدودا دينية. ولا ريب في أن جميع من يطوقون أنفسهم بالحدود - مسلمين كانوا أم غير مسلمين - على أسس وطنية أو دينية يقصون ويعزلون أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر. ومن السهل أن ينحط هذا العزل الإقصائي إلى درك اللامبالاة بآلام وتباريح الآخرين، وكثيرا ما يصل إلى حد العنف ضدهم. أتباع نموذج أجمر وحدهم - مسلمين وغير مسلمين -

يؤمنـون بالرابطـة الإنسانية المشتركـة ومن ثم يقدرون على العيش بارتياح مع الآخرين والتكيف معهم والتعلم منهم. هذا هو الدرس العظيم الذي نتعلمه من تاريخ العالم والمأزق الراهن. وإلا كيف تستطيع الحضارة العيش بسلام وتناغم في المستقبل؟.

يستحضر هذا كله فكـرة وممارسة قبول الآخر وفقا لنموذج أجمر العالمي الشمولي. ولا يعنـي ذلـك القـول إن مشـكلات العـالم سـوف تحـل آليـا بواسطة الجانـب الحالم والروحاني من نموذج أجمر، الذي يتعرض أحيانا للإغراء المحفوف بالخطر للانسحاب من المجتمع كليا. ومن الواضح أن طبيعة النموذج القائمة على قبول الآخر يجب تدعيمها بالالتزام والحماس اللذين يمكن أن يوفرهما نموذج ديوباند، إلى جانب المهارة والبراعة في التفاوض مـع الحكومات والمنظمات والأحـزاب السياسية، وهي مـن السمات المميزة لنموذج عليكره.

تكمـن قوة نظـرة نموذج أجمـر إلى العالم في امتلاكهـا روح القبول ذاتهـا المتأصلة في التقاليـد التراثيـة الأخرى. فالنصوص اليهوديـة، والإنجيل، والقـرآن، والنصوص الهندوسية المقدسة، ونصوص السيخ المقدسة، وأقوال كونفوشيوس وحكم بوذا - تجاوزت تعاليمهـا كلها إطار الطقوس الشعائرية والعبادية. فقد علمت البشر كيف يخترقون عمق رسالتهـا ويبحثون عـن موضوع أساسي وجوهـري ومشترك في كل منهـا: أهمية فضائل العـدل والإحسـان والعلم بوصفها ترياقـا للسموم التي أصابت ببلائهـا المجتمع البشري وشوهته وضللته. المسألة تتعلق فقط بالبحث عن الفهم والروح الحقيقية للدين.

تبدو المشكلات الرهيبة الناجمة عن الفقر، والانفجار السكاني، والاحتباس الحراري، وأعمال القتل بدوافع دينية وإثنية في شتى أنحاء العالم، مستحيلة التفسير والتبرير في هذه المرحلـة من التاريخ، لأن الحضارة العالمية ورثت ميراثـا غنيا من الفكر الروحي. ولربما نتسـاءل: هل يمكـن للركائز الفلسفية النظريـة التي أوجزناها في هـذا الكتاب أن تقدم العـون والمساعدة؟ الجواب، كما أعتقد، هو أنها ليسـت قادرة فقط على تقديم المساعدة في السمو بالنفوس والأرواح بطريقة مباشرة وشخصية، بل يمكنها الارتقاء بالجدل على المستويـين الوطني والدولي حول هـذه القضايا العالمية تحديدا. لكن ذلك سيتطلب جهدا دؤوبا ومثابرة على المدى البعيد والقريب.

يجب أن تأخذ الحلول في الحسبان ارتباط بلدان وسكان العالم ارتباطا وثيقا، وحقيقة أن كل ما يجري في الولايات المتحدة يحدث تأثيرا فوريا تقريبا في العالم الإسلامي، والعكس صحيح. وإلى أن تتمتع المجتمعات بالعدالة أو أن تعد نفسها كذلك، سوف يستمر الغضب بنشر سمومه وبثها في أرجاء العالم كافة. لقد رمزت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى غضب المسلمين، الذي استفز غضب الأمريكيين. كان الغضب هائلا على حجم المأساة والضحايا الأبرياء بحيث أصبح من المستبعد، ومن غير المنطقي، توقع تعاطف وتراحم وتفهم الأمريكيين آنذاك. فهذا يناقض الطبيعة البشرية ذاتها. لكن لو ساد التفكير الهادئ المتروي لتمثلت المهمة الأولى في القبض على المجرمين والمتآمرين ثم تعزيز التعاطف العالمي مع الولايات المتحدة الذي عبر عن نفسه بأسلوب عفوي وتلقائي – حتى في البلدان المعادية لأمريكا مثل إيران – ليتحول إلى حركة تستهدف تحسين وضع المستقبل المشترك للكوكب الأرضي.

تمثلت ردة فعل جورج بوش على مأساة الحادي عشر من سبتمبر في الغضب لا في التعاطف أو التراحم أو الفهم. إذ قال بعد بضعة أيام مخاطبا الجلسة المشتركة للكونغرس: "لقد تحول حزننا إلى غضب، والغضب إلى عزيمة وتصميم"، فاستقبل بعاصفة مدوية من التصفيق. وبذلك تجاوز انتهاك بوش مجرد تحذير بوذا من سم الغضب، لأنه رفض وصيتين مركزيتين من وصايا المسيحية: "لا تقتل!" (الوصية الموروثة عن موسى)، و"فليحب بعضكم بعضا" (الموروثة عن المسيح ذاته). ومنذ ذلك الحين، سوف يوجه غضب بوش إلى كل من يرغب في اتهامه بـ"الإرهاب". هذا النمط من التفكير سيتحول إلى سياسة خارجية للولايات المتحدة، التي ستختزل ضمن شعار بسيط: "إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهابيين". أما حجج بوش التي قدمها ليثبت أنه يخوض "حربا عادلة" بالمفهوم المسيحي – بل استخدم تعبير "الحرب الصليبية" – فقد رفضها حتى بعض المسيحيين. إذ أعلن البابا يوحنا بولس الثاني أن الحرب على العراق ليست حربا عادلة: إذ لم يكن الأفغان والعراقيون متورطين في حرب على الولايات المتحدة. بدلا من ذلك، كان على الولايات المتحدة استهداف "القاعدة" وإحضارها إلى العدالة.

سـوف يشن بوش واحـدة من أكثر حروب التاريـخ بعدا عن التكافـؤ والتعادل، حيث استخـدم أحـدث تقانـة عرفها الإنسـان ضد بلديـن مسلمـين صغيرين يعانيـان الفقر وانقسامـات وتصدعـات عميقة: أفغانستـان والعراق. فقد مزقـت كلا منهما النزاعاتُ الإثنية والصراعـات السياسية، وتطلع شعبه، بملايينه التي تعيش على حافة الجوع، إلى الولايـات المتحدة طلبا للعـون والصداقة. ثم صدم بالهجوم الذي شن عليه فقتل الآلاف، فضـلا على تعرض الكثيرين للتعذيـب والإذلال الجنسـي. الكابوس الـذي خلقه جورج بوش لهـذه المجتمعات الإسلامية سوف ينتشر بسرعة ليصيـب أجزاء أخرى من العالم، ومنهـا مجتمعه هو. ومع أن الأمر تطلب وقتا ليدرك الأمريكيون الحقيقة، إلا أنهم وجدوا أنفسهـم في نهايـة المطـاف على منحدر زلق يمكـن أن يؤدي إلى تعليـق العمل بالحريات المدنية، وترصد العالم، وعصاب جنوني، وكراهية الآخرين، مع نقاش مفتوح عن "اعتقال واحتجاز" المسلمين في الولايات المتحدة. تلقى التعذيب الدعم والتشجيع، وقاد نائب الرئيس حملة مؤيدة لاستخدامه، خصوصا التعذيب بالماء، وكممت أفواه المنتقدين[3]. أما الحجة السائدة فكانت: يجب هزيمة الإرهابيين مهما كان الثمن. وغذى مزاج الغضب الذي عبر عنـه بوش بطريقة مباشرة وقوية أفعال وتصرفات الإدارة ووسائل الإعلام الكبرى، التي استثارت مشاعر الخوف وانعدام الأمن والأمان لدى الشعب.

بعـد عدة سنوات على الحادي عشر من سبتمبر، عمل صناع الرأي العام في الولايات المتحـدة، ومنهم مقدمو البرامـج التلفزيونية، الذيـن استعرضـوا أفكارهم تحت عباءة التبحـر في العلم والمعرفة، على الترديـد الببغائي لمخاوف الإدارة من وجود هجوم وشيك ومحتوم على الولايات المتحدة، وتعاظم خوف الأمريكيين من تعرضهم لخطر وشيك فزاد غضبهـم لأن تغييرا كبـيرا أصاب حياتهم. وترك الأمـر إلى المهرجين والممثلين الهزليين لإعادة شيء من المنطق الواقعي إلى الساحة، والإشارة، خصوصا بعد غزو العراق، إلى ما كان خاطئا وظالما وسخيفا وعبثيا في التطورات التي حدثت حولهم. بدأت الأصوات ترتفع بعد الأخبار الكارثية القادمة من العراق ولم يعد بالإمكان وقفها، وسرعان ما تحول الناس إلى جـو ستيوارت وستيفن كولـبرت (على "كوميدي سنترال") للحصـول على الأخبار. أشعر شخصيا بالامتنان لمعرفة أن الأمريكيين ما يزالون يحتفظون بروح الدعابة الشهيرة لديهم، وذكائهم الحاد، وتعاطفهم مع المضطهدين والمستضعفين.

لا يمكـن لأحد منا توقـع ردة فعله على المأساة الشخصيةالمـوت المفاجئ لزوج أو ابن أو حتـى قريب. وحين تصيـب مأساة كهذه مجتمعا برمته، تتعاظم وتكبر وتتضاعف، فإن سببهـا أعـداء تقليديون، تعبر ردة الفعـل السائدة عن الغضب بقدر مـا تعبر عن الكره، لكـن البشر قـادرون علـى الاستجابة لأسوأ أنـواع العـدوان بالإحسـان والتعاطف وكرم الأخـلاق. برأي الكتّـاب، ليست هذه الاستجابـات المعبرة عن سماحة النفـس الإنسانية سـوى سمة من سمـات "الأولياء والصالحين"، وفي نظر الشعراء هـي "ومضات سماوية وربانيـة". أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنتجت العديد من الأمثلة على هذه السمات والومضـات. منظمة "أصواتنا معا" برئاسة ماريان سكوت الناشطة التي لا تكل ولا تمل، أسسهـا أولئك الذين فقـدوا أقاربهم في ذلك اليوم المشـؤوم (www.ourvoicestogether.org). ومـن مشروعات المجموعة بناء مراكـز تعليمية وتثقيفية في أفغانستان. ولأنها تدرك أن أعضاء "القاعدة" وأسامة بن لادن عاشوا بين الأفغان، فقد أرادت تحويل الغربـاء والأعـداء إلى أصدقاء. جوديا بيرل بعث بإشـارة مشابهة أيضا حين عرض علي الحـوار ثـم الصداقة مع علمه بأنني باكستاني الأصل. وعلـى الرغم من أن ابنه الحبيب قتـل في باكستـان، إلا أنه غالـب نفوره الطبيعي مـن أولئك الذين ارتكبـوا هذه الجريمة ليتواصل مع أفراد الأمة ذاتها التي خرج منها القتلة. والحوارات التي أجريناها معا منذ عام 2003 ساعدت في تشجيع الفهم اليهودي - الإسلامي المتبادل وفي بناء الجسور بين أتباع الديانتين.

أظهـر السياسيون أيضا أن بمقدورهم الارتقاء فـوق الأهواء البشرية المشتركة وبلوغ مستـوى أخلاقي رفيع وسام عبر الإصرار على التعاطـف والتراحم والإحسان والعدل في وجـه أعمـال القتل والتدمـير الهائلة. غاندي ونهـرو ومحمد علي جنـاح ثلاثة من رجال الدولـة هؤلاء. ففي صيف عـام 1947، ذبح الهندوس والمسلمـون والسيخ بعضهم بعضا في جنـوب آسيـا؛ قتل مليونا شخص ونـزح قرابة خمسة عشر مليونا مـن بيوتهم ليجدوا بيوتـا جديدة في أرضـ جديدة[4]. لكن وقـف كل واحد من هؤلاء الثلاثـة بثبات في وجه العنف الطائفي حتى وإن كان ذلك يعني تحدي طائفته. في مناسبات عديدة، لجأ غاندي إلى الصـوم حتى المـوت إلى أن يوقف الهندوس أعمال الشغب ضـد المسلمين في الهند؛

وأعلن نهرو أن أمته أصابها "الجنون" وأمر إدارته كلها بكبح جماح العنف باعتباره أهم أولوياتها؛ وألقى محمد علي جناح، على الجانب الآخر من الحدود في باكستان، وهو يرى حشدا من الغوغاء المسلمين الغاضبين يحاصرون جماعة من الهندوس في كراتشي، ألقى بنفسه وسطهم لوقف العنف وأعلن: "سأجعل نفسي الحامي والنصير للأقلية الهندوسية في باكستان"[5]. ونتيجة لذلك، تعرض الزعماء الثلاثة للتهديد من طوائفهم. في نهاية المطاف اغتال غاندي رجل اشتكى دعمه وتأييده للمسلمين.

ثمة عدد لا يحصى من الأمثلة التي يجسدها اليهود والمسيحيون والمسلمون والهندوس، شيبا وشبانا، رجالا ونساء، تثبت وتبين طاقة البشر على بلوغ ذرى أخلاقية سامقة في أصعب وأقسى الظروف. هكذا يتحول الأفراد العاديون إلى شخصيات استثنائية، فيدخلون التاريخ ويصبحون جزءا من التراث الشعبي والأسطورة.

لكن للأسف، لم يظهر زعيم استثنائي غيري يقود الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر. ولم تخمد حدة الغضب الهائل الذي هيمن بعد ذلك اليوم الكارثي، وما يزال مستمرا في التأثير في حكم قادة الولايات المتحدة وحكمة مواطنيها. ونتيجة لذلك، فإن مؤسسات الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المدنية، التي تقدر قيمتها مجتمعات عديدة في العالم، معرضة للخطر ومصابة بالضعف والوهن. إن تجاهل المثل العليا للآباء المؤسسين بذريعة الحرب إنما هو خيانة لا لرؤيتهم فقط بل لمستقبل الاتحاد أيضا.

كان على الولايات المتحدة، خصوصا وأنها أمة فتية نسبيا وقوية، صياغة فلسفة جديدة تجاه الحضارات الأخرى. ولأنها تتعامل مع الدول الإسلامية ذات الطبيعة المتنوعة اجتماعيا وسياسيا، فهي بحاجة إلى تقدير أهمية الفوارق بين هذه المجتمعات دون إبطاء. المسلمون يشتكون على نطاق واسع غياب العدالة، والفساد المستشري، وانهيار القانون والنظام. وكثيرا ما دعمت الولايات المتحدة التدخلات العسكرية دون أن تدرك كم يشجع هذا الدعم الاضطراب والفوضى، أو حجم آثاره السلبية داخل البلد المعني.

ربما يكمن أحد أسباب رد الولايات المتحدة في أن صناع وراسمي السياسة فيها يميلون إلى عدم التركيز على الأهداف بعيدة المدى والاكتفاء بالاهتمام بالحالات الطارئة الفورية، وهذا يشجع على اتخاذ مقاربة عاطفية وجوانية أكثر منها منطقية

وعقلانيـة. إضافة إلى ذلـك، ربما تكون السياسة الخارجية الراهنـة متأثرة بالرغبة في الفـوز بالانتخابات القادمة بعد أربع سنين. وكلا العاملـين يمنع الزعماء الأمريكيين من الحوار مع ممثلي نموذج ديوباند، حتى إن انتخبوا ديمقراطيا، كما هي الحال مع حماس أو أحمـدي نجاد. وبتجنب هذا الحوار، لا تتجاهـل الولايات المتحدة أصواتا تمثل شرائح واسعة من المجتمع الإسلامي فقط، بل تعزز مكانتهم إلى درجة تتجاوز قيمتهم الحقيقية. وعبر رفض العمل معهم تصيب المسلمين من أتباع نموذج ديوباند الذين يرغبون فعلا في العمـل مع الولايات المتحـدة بمزيد من الإحباط وتزيد غضبهـم، ومن ثم يصبحون أكثر ميـلا إلى الانضمـام إلى صفوف المؤيديـن للقيام بأعمال عدائية ضدهـا. هناك العديد مـن أمثال إعجـاز (في نموذج ديوبانـد) الذين يمكن إقناعهم بالحـوار بتعديل نظرتهم تجاه الأمريكيين، كما بينت الرسالة الإلكترونية التي بعث بها رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعـة ديوبانـد (حزيران / يونيو 2006): "التقيت بك عنـد زيارتك لدار العلوم في ديوباند.. كانت تلك من أسعد لحظات حياتنا. تأثرنا تأثرا بالغا بكم جميعا".

يمكن لصناع وراسمي السياسـة والديبلوماسيين الأمريكيين العمل مع أنظمة نموذج ديوبانـد لترويج المعايير الأمريكيـة القائمة على العدالة والمسـاواة وحقوق الإنسان، لكن ذلك لن يتم إلا بالحوار. إن زيارة الباحثين والأكاديميين والديبلوماسيين الأمريكيين إلى المساجد والمدارس الدينية وقيامهم بمحاولات جادة لإجراء الحوار يمكن أن يحدث تأثيرا مهمـا. الحوار لا يمنع الولايات المتحدة من اتخاذ إجراءات عقابية بحق المدانين بارتكاب أعمال العنف، لكن يجب التمييز بطريقة دقيقة بين المذنبين فعلا والأبرياء حقا. وهنالك حاجـة للبحث عـن الحقيقة قبل إصدار الاتهامات بحق "الأنظمـة الإرهابية" أو الإعلان عـن "مؤامرات إرهابيـة"، ثبت فيما بعد أنهـا زائفة. وحتى في حالـة "مقاتلي الأعداء" الأفراد، من المهم احترام الإجراءات القانونية التي يجب أن تكون سريعة وملموسة بحيث يعرف العالم أن العدالة الأمريكية لا تشوبها شائبة.

الحقيقـة والعدالـة من المثـل الأمريكيـة. ولا يمكن للتلفزيـون أن يحل محـل الواقع الحقيقي. ويجب على الأمريكيين ألا يرضوا ويقنعوا بإبعاد أنفسهم عن الظلم الذي يصيب العـالم ببلواه. الأسئلـة التي يجب أن يطرحها جميع الأمريكيين هـي: ماذا يعني أن تكون

الولايـات المتحدة أقوى دولة على وجه الأرض؟ هل يعني ذلك حيازة واستخدام الأسلحة الفتاكة التي تقتل الأبرياء الذين يعيشون في القرى والأماكن النائية من العالم؟ هل يعني بنـاء ذهنيـة القلعة الحصينة لأمريـكا؟ أم يعني تطويـر مؤسسات اجتماعيـة وسياسية لتنويـر وتثقيف ومساعدة البشر كلهـم؟ بوصف الزعماء الأمريكيـين القادة الأخلاقيين والسياسيـين للكوكب الأرضي، يجب أن يحـاول الأمريكيون حث حضارات العالم الأخرى على التصدي للمشكلات العالمية المشتركة. ولا يمكن لقوة أخرى أن تؤدي هذا الدور.

عنـد التعامـل مع العـالم الإسلامي، يحتـاج المعلقـون ومخططو السياسـة الغربيون إلى فهـم النماذج الثلاثـة في السياسة الإسلامية. ومثلما كررنـا في فصول هذا الكتاب، خضعـت زعامـة العديد من المجتمعات الإسلامية لهيمنة نمـوذج ديوباند، الذي كانت له اليـد الطولى بسبب عجز الدولة الإسلامية الحديثة عـن توفير الأمن والأمان لمواطنيها، أو المبالغـة في تشديـد الإجـراءات الأمنية القائمـة على أساليب الترهيـب والتخويف، أو فشلهـا في توفـير الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحيـة المناسبة والتعليم. في أوقات الأزمات الوطنية، أخفقت بعض الدول حتى في ضمان سيادة ووحدة أراضيها. وما يعادل ذلـك في الأهميـة، أن معظم الـدول الإسلامية لم تغرس في مواطنيهـا الشعور بالاعتزاز الوطني والهوية الوطنية، وهو من العوامل التي كانت ستنشط المسلمين وتزودهم بالطاقة والحيويـة عند الاستقلال عن القـوى الاستعمارية الغربية قبل نصـف قرن. وحين يشعر شعـب بأن حكومته لم تعد تتصل بطموحاته وتطلعاتـه، يقاطعها ويبتعد عنها بمعنى أنها تصبـح تعبـيرا لا شرعيـا ومصطنعا عن إرادة الغـرب. المثال على ذلـك باكستان برويز مشـرف، التي تحولتفي أفضل الأحوالإلى نسخة مشوهة مـن نموذج عليكره، وتملأ أتباع نموذج أجمر باليأس والإحباط، وتثير حنق وغضب أتباع نموذج ديوباند.

ملأت القيادات التي تتبنى نموذج ديوباند الفراغ الذي خلفه فشل الدولة. إذ لم تكتف بتوفير مرافق الرعاية الصحية والتعليم، مثلا، بل أصبحت في حالات كثيرة المدافع الوحيد عـن الأمة في وجه القـوى الأجنبية – مثلما فعل حزب الله حين صـد العدوان الإسرائيلي علـى لبنان عام 2006، وكمـا فعل العراقيون والطالبان حين عرقلوا وأبطأووا آلة الحرب الأمريكيـة. لقـد زادت هذه الإنجـازات المتحققة في وجه أعتى جيشـ في الشرق الأوسط

وأقـوى جيش في العالم ألق وبريـق ومصداقية نموذج ديوباند. وبالمقابل، بدت الحكومات التـي تميل إلى نموذج عليكره ضعيفة يكتنفهـا الغموض وعدم اليقين، إلى حد الانفصال عن الواقع تقريبا.

ومثلمـا أوضحت تكنولوجيا المعلومات الحديثة للمسلمـين العاديين، استسلم الرئيس مشـرف، قائد واحد من أقوى الجيوش في العالم الإسلامي والمجهـز بالأسلحة النووية، وتراجـع علـى الفور أمام الغضـب الأمريكي بعد الحادي عشر مـن سبتمبر، في حين كان مـا يدعى بالمتمردين والانتحاريين على استعـداد للتضحية بكل شـيء في سبيل أرضهم وشعبهـم. ومـع أن الكثيرين ربما لا يوافقون علـى أعمال العنف التي يقـوم بها إخوانهم المسلمـين، لأنها تقتل من الأبريـاء أكثر من الجنود في الميـدان، إلا أنهم يعجبون ويقرون بشجاعـة وإخلاص والتـزام هؤلاء المستعدين للتضحية بحياتهـم. بيت الشعر الذي كتبه روديـارد كيبلنغ عـن الجنود البريطانيين الذيـن قتلهم رجال القبائـل المسلمون: "ألفان مـن الجنيهات على التعليـم/ تبددها بارودة عتيقة بعشر روبيات"، يجد صداه في أجهزة التفجـير المحلية الصنع والرخيصة والمتوفرة، التي أثبتت قدرتها الفتاكة وأوقعت خسائر جسيمة في صفوف الجنود الأمريكيين.

ارتكب الأمريكيون خطأ قاتلا في خوض الحرب على الإرهاب عبر إحياء استراتيجية استخدمت في الحـرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي. فهذه المقاربة لا تأخذ في الحسبان تعقيـد المجتمـع الإسلامي. إذ يلتزم المسلمـون جميعا دينهم، بغض النظر عن النموذج الـذي يتبعونـه، وسـوف يدافعون عنـه، وبالتوسع عـن وطنهم، بطرائـق مختلفة ضد ما يعدونـه هجوما من الخـارج. وعلى العكس من ذلـك، فقد المواطنـون السوفييت، الذين تعرضـوا لإرهاب نظام وبنيـة الدولة برمتهـا فأصابهم الإحباط وخيبـة الأمل، إيمانهم بإيديولوجية الدولة، حيث لم يكن انهيارها محتوما بل أدى إلى شعور عام بالارتياح أيضا. لقـد فشل أولئك الذيـن أملوا بالتوصل إلى نتيجة مشابهة عـبر الحملات العسكرية على العـالم الإسلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر، في إدراك حقيقة أن المجتمع الإسلامي، المدعـوم بالإسلام، سـوف يهب لمواجهة التحـدي أمام ما بدا أنها حملـة تستهدفه. هذا يعني أن الإسلام نظام كلي ومتكامل، وأجزاؤه المختلفة تؤدي دورها في أوقات مختلفة من

التاريخ للحفاظ على الكل، كالجسد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

لقد أدت المقاربة الغربية، التي انحدرت إلى مستوى إدانة الذين يميلون إلى نموذج ديوباند بوصفهم إرهابيين ورفضت الحوار معهم، إلى سياسة غير واقعية ومحكوم عليها بالفشل الذريع. ولأن العديد من المسلمين متأثرون بنموذج ديوباند، يحتاج الغرب إلى ابتكار طرق جدية للحوار مع القادة الذين يتبنون النموذج. ويحتاج أيضا إلى تشجيع ودعم الصيغ الحقيقية من نموذج عليكره بطريقة نشيطة وفعالةأي دعم الديمقراطية غير المقيدة، لا تلك الصيغة التي تأتي تحت قناع الديكتاتورية العسكرية. وعلى الغرب أيضا البحث عن / وتعزيز نموذج أجمر لأنه يوفر منطلقا أصيلا ودائما للفهم العالمي المتبادل.

من جانبهم، يحتاج المسلمون إلى مراجعة النماذج الثلاثة مع التركيز على تكييفها لتلائم العصر، عصر العولمة الذي نعيشه. الإسلام يشجع كل فرد على النضال لبلوغ مستوى روحي أعلى. هذا المسعى يدعى - كما ذكرنا آنفا - الجهاد، الذي يعني حرفيا "السعي والمجاهدة". لذلك يحتاج المسلمون إلى إعادة اكتشاف الجهاد، لتحسين حياتهم بالمعنى الروحي، فهذا هو "الجهاد الأكبر"، مع العمل بهمة ونشاط على نقض وإبطال التفسير الذي يساويه بأعمال العنف، "الجهاد الأصغر"، حتى في حالة الدفاع عن النفس. المسلمون بحاجة إلى إدراك حقيقة أن أكثر "الأسلحة" مضاء وفعالية لمعالجة مظالمهم وشكاويهم هي العلم والمعرفة والعقل، لا القوة الغاشمة. عليهم إحياء مُثل الاجتهاد، الذي يسمح بالتفكير الإبداعي الخلاق للتواؤم مع الظروف والاحتياجات الجديدة للمجتمعات الحديثة، مثل حقوق المرأة، والأقليات، والمحرومين. ولا بد من تقليص مدى الولاءات القبلية في سبيل التعاون في عالم أكثر اندماجا وتكاملا. ويجب فتح المراكز التعليمية ودعمها من الحكومات لإحياء المثل الإسلامية.

وعلى القدر ذاته من الأهمية، يجب رفض كل عذر تبريري لتجاهل المثل القرآنية القائمة على العدل والإحسان والتراحم والحكمة. وعلى الزعماء المسلمين السعي ليكونوا على مستوى رؤيتهم للمجتمع المثالي. فالعديد من الحكام العرب يستخدمون ذريعة

إسرائيلبطريقة مباشرة أو غير مباشرةلتجنب السير نحو الديمقراطية إلى أن "تحل" تلك المشكلة. وفيما يتعلق بالسياسيين وضباط الجيش في باكستان، تصبح الذريعة كشمير و"التهديد" الهندي، حيث يستغلونها لتأخير إدخال ديمقراطية حقيقية والتزام حقوق الإنسان والحريات المدنية. وكثيرا ما يستحضر الزعماء المسلمون "عدوا" ما لتبرير تعليق العمل بالقانون المدني وفرض إجراءات وأنظمة قاسية واستخدام الأساليب الوحشية. حتى الزعماء في الولايات المتحدة وبريطانيا بدؤوا الاعتماد على الدوافع التبريرية، مثل التهديدات الإرهابية والأخطار المحدقة بالأمن. وإذا لم ترتق المجتمعات كلها إلى مستوى معاييرها الرفيعة ذاتها وتتوقف عن البحث عن الذرائع والحجج التبريرية للتخلي عنها، سوف تنحدر في نهاية المطاف إلى درك عالم من الإرهاب المشرعن.

ماذا لو استجاب العالم الإسلامي وفقا لطريقة نموذج أجمر - أو حتى نموذج عليكره - بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق؟ ضبط النفس هذا كان سيؤثر في الغرب ويوجد تعاطفا مع قضايا المسلمين. لكن كما حدث، أكدت عمليات قطع الرؤوس، والتفجيرات الانتحارية، والخطاب المفرط في عنفه - وكلها تنجرف بعيدا عن نموذجي أجمر وعليكره - القوالب المنمطة الموجودة للمسلمين. وسرعان ما سيبدأ الغرب مساواة العنف والإرهاب بالإسلام ذاته. والأسوأ أن الغربيين بدؤوا يعدون المسلمين كلهم كائنات يتأصل في تكوينها العطش لسفك الدماء، وهو رأي غذى تنامي حالة الخوف الرهابي من الإسلام (اسلاموفوبيا) في شتى أرجاء العالم، وازدياد استخدام التعبيرات الازدرائية والتحقيرية للإسلام والمسلمين. حتى الرئيس بوش استخدم تعبير "الفاشية الإسلامية"، دون أن يدرك ربما مضامينه ومدى الإهانة التي ألحقها بالكثير من المسلمين، وفيهم حلفاء مخلصون له.

مع أن سموم الجشع والغضب والجهل ما زالت منذ عهود تصيب البشر ببلاياها، هناك ميراث أعظم يتمثل في حكمة الحكماء والعارفين. ومناداتهم بالإحسان والتراحم يمكن أن تمثل اليوم أداة فعالة لكبح جماح الجشع الذي يحرك الشركات القوية المتعددة الجنسيات، وحتى الحكومات التي تستغل دون رحمة الموارد الطبيعية للبلدان الفقيرة وتتجاهل الحاجات الحقيقية للملايين. لقد أدى هذا الوباء القادم في ركاب العولمة إلى

حدوث فجوة هائلة بين بضعة أفراد يعيشون حياة تبذير ورخاء ومتعة وبين الملايين الذين يكافحون لكسب لقمة العيش - أو ما سماه علماء الاجتماع "النهب العالمي"[6]. ومثلما يحث نموذج أجمر، يجب على الأمم تعلم العيش على الحد الأدنى كفلسفة حياتية. يجب أن تستخدم الحد الأدنى من القوة والمياه والطعام، إذا أراد أي منها، فضلا على الكوكب الأرضي، البقاء والاستمرار. يجب أن يقبل كل منا الدعوة والتحدي اللذين أصدرهما السير جوناثان ساكس، أحد ابرز الحكماء من رجال الدين في عصرنا، لمعالجة عالمنا المتشظي والمتكسر[7].

كذلك علينا نحن أيضا اتباع نصيحة الحكماء التي تحثنا على طلب العلم والمعرفة. ودون ذلك، سيتحول كل فرد بشري إلى عالم مكون منه وحسب. فكل واحد من البشر بحاجة إلى أن يكون أكثر حساسية تجاه ما هو مقدس أو رمزي في ثقافة الحضارات الأخرى. ومثلما يتأثر المسلمون – كحالهم دائما وأبدا - تأثرا بالغا بأي إهانة توجه إلى النبي والقرآن، كذلك يتأثر الأمريكيون بأي إهانة توجه إلى علمهم، الذي يرونه مجسدا لشعورهم الوطني وهويتهم. إن الجهل بالثقافات الأخرى يؤدي إلى أخطاء سياسية محفوفة بالخطر، عند شن الحرب أو عند إجراء مفاوضات السلام. وحين تعرف المجتمعات عن الشعوب والثقافات الأخرى، يستبعد أن تراها معادية أو منقطعة الصلة بها. وما إن تدرك مدى اعتماد بعضها على بعض حتى تتوقف عن الرد على الاستفزاز بمزيد من الاستفزاز.

يجب إضافة العدالة إلى هذه المعادلة، التي ستمنع العنف من توليد القوة الفجة باستمرار. العدل والإحسان معا سوف يلغيان أسباب العنف، وأنا أشجع الأمم كلها على ضم هذه الفلسفة إلى عملية رسم سياستها. إن المجابهات العنيفة المتواصلة في عصرنا يمكن أن تحل إذا أمكن التصدي لها ضمن هذا الإطار. من أشد هذه الصراعات مأساوية ودموية ذلك الذي يحدث في الشرق الأوسط منذ نصف قرن دون أي أمل بالعثور على حل له بسبب إدراك الطرفين لغياب العدل والإحسان والتراحم. الأحداث البارزة التي توجد مزيدا من الكراهية والعنف حاضرة وحية في أذهان المتحاربين: غضب المسلمين الذي تفجر في أوائل عام 2007 بسبب أعمال الحفر والتنقيب تحت سور المسجد الأقصى في

القدس (الذي يعبر عن إحساس المسلمين بوجود مؤامرة دنيئة لهدم المسجد)؛ العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف 2006، حيث ردت إسرائيل على أسر حزب الله لجنديين من جنودها ردا ساحقا وعنيفا وهمجيا؛ القتل والدمار نتيجة القصف الإسرائيلي المستمر لغزة والضفة الغربية؛ وهذا كله دفع العرب للبحث عن مزيد من المجندين لتنفيذ العمليات الانتحارية الإجرامية، وقتل المسافرين في الحافلات والأبرياء في المطاعم.. والقائمة تطول. لقد حان الوقت كي يجلس الطرفان معا كندين، والعمل معا ضمن الأطر الثقافية والدينية لكل منهما - مع أخذ مظالمه وشكاويه بعين الاعتبار - وإقامة سلام دائم بينهما. ففي غياب العدل والإحسان والتراحم، سوف تتسارع حلقة القتل المفرغة لتوقع مزيدا من الضحايا.

لكن يجب أن يتبادل الطرفان كليهما الصداقة والمحبة قبل كسر هذه الحلقة المفرغة. القرآن يؤكد مرارا أن الفرد حين يبلغ عمرا معينا من الاستنارة الروحية، يرتفع الحجاب أو الستار أو الغشاوة عن عينيه ويتمكن من رؤية العالم وحقائقه بكل وضوح، متحررا من الارتباط بالمتع الدنيوية الزائلة، أو الآلام، أو الحاجات الأنانية. وحين تغالب سموم العولمة، تبرز الحقيقة والواقع ويصبح بالإمكان جني فوائدها ومنافعها بأمان وترك تأثيرها المسموم.

لو طلب مني أن ألخص ما تعلمته خلال رحلتي داخل الإسلام في بضع كلمات سأقول: كن مخلصا لمثلك العليا. وهذا يعني فيما يتعلق بالولايات المتحدة التركيز على ممارسة الديمقراطية وتشجيع التعليم والعدالة واستخدام "الحبال الدبلوماسية" لتحقيق هذه الغايات. على سبيل المثال، يمكن للسياسة الخارجية الأمريكية أن تؤكد أن دعمها لباكستان لا تضمنه إلا حكومة منتخبة ديمقراطيا داخل إطار زمني محدد. لقد قدمت الولايات المتحدة إلى باكستان زهاء خمسة مليارات دولار منذ الحادي عشر من سبتمبر (إضافة إلى مبلغ مماثل تقريبا لتمويل الأنشطة المتعلقة بالأمن ومكافحة الإرهاب)، وكان بمقدورها أن تطلب إنفاق هذه المعونة على بناء المدارس وتدريب المدرسين وترجمة الكتب للباكستانيين، وترجمة الكتب الباكستانية إلى الإنكليزية ليقرأها الأمريكيون، لا على مشتريات الأسلحة. وكان الباكستانيون سيستفيدون من حكمة وبلاغة ورشاقة أسلوب

كتابات فرانكلين وجيفرسون، ويقدر الأمريكيون قيمة الطبيعة الديمقراطية لشخصية محمد علي جناح، والرؤية الشعرية لمحمد إقبال. هذا التغير البسيط في السياسة والوجهة سيضمن إنجاز ما أخفق فيه المسار الحالي: سوف يوجد شعورا حقيقيا بتقدير ما تفعله أمريكا في باكستان لدى الناس العاديين، ويقلص بالتالي خطر التهديد الأمني على الأمريكيين.

التوصية ذاتها أقدمها للزعماء والقادة المسلمين. التزموا قدر المستطاع مثلكم العليا. أكدوا العلم والإحسان والعدل في مجتمعاتكم. في هذا الوقت، تئن شعوبكم تحت وطأة حكمكم لأنها لا تجد هذه المثل مطبقة. ولا يمكنكم، لا أنتم ولا العالم المحيط بكم، منع الأمة من أداء دورها الكامل على المسرح العالمي. وسيكون هذا الدور إيجابيا ومفيدا للجميع حين تحدده هذه المثل الإسلامية العظيمة. أنتم بحاجة إلى أن تتذكروا - مثلما على الزعماء الغربيين أن يتذكروا - أن 25% من سكان العالم الذين سيبلغ عددهم 11 مليار نسمة بحلول عام 2050 (وفقا للتقديرات الديمغرافية الراهنة)، سيعيشون في سبعة وخمسين دولة غالبية سكانها من المسلمين[8].

إن روح التراحم والإحسان والحوار هي التي دفعتني إلى السفر في العالم لاكتشاف الأجوبة عن مشكلات عصرنا. تحدثت مع رؤساء الدول ورؤساء الحكومات، وسألت العلماء والباحثين والطلاب. بحثت في الكنس والكنائس والمساجد والمعابد. بحثت عن الحكمة في أقوال وأفعال الحكماء والعارفين، ولمحت مجد المقدس الرباني في قلوب الأبرياء وأفئدة الأنقياء. رأيت الحب في صلوات الزوار في الأضرحة والمقامات، وطيبة ورقة الغرباء، وترحيب المضيفين. لم يشتت انتباهي زهو وتفاخر وصياح وصراخ رجال - كصبية في مسرحية مدرسية - لا يقنعون إلا أنفسهم. رأيت نفوسا جاهلة تحاصر أولئك الذين يتحدثون عن السلام والتراحم والإحسان. سمعت أصواتا عالية وخشنة تصرخ "ليس الآن" و"ليس هنا". لكنني سمعت أيضا أصواتا عذبة وسط الضجيج الصاخب، تقول: "إن لم يكن الآن، فمتى؟ حان الوقت، حان". سمعت الصدى يتردد في بيوت العبادة، وفي المدن والقرى، وفي الوديان والجبال: لقد حان الوقت.